

مسئولية خلقية للأستاذ عبد الرزاق حميده

علم الأخلاق يعتبر الفرد مسئولا عن أخلاقه وأخلاق الجماعة التي يعيش فيها، ومسئوليته أمام ضميره الحى الذى يرشده الى الحق ويهديه سواء السبيل .

والدين يعتبر الفرد مسئولا عن تقويم أخلاقه وأخلاق الجماعة التي يعيش فيها أمام الله و أمام ضميره . فقد جاء في القرآن الكريم "إن الذى كفروا من بنى اسرائيل لعنوا على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ؛ لبئس ما كانوا يفعلون" . " وعن النبي صلى الله عليه وسلم "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبأسانه . فان لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الايمان"

وسبب هذه المسؤولية أن الفرد يستطيع أن يرى من عيوب الناس ما لا يراه القانون ، ويرى من مخالفات الناس للقوانين ما لا تراه هذه القوانين . ولا يصل اليه علم القائمين عليها . والمخالفات التي تجرى الآن لما شرعته الحكومة من قوانين وموقف بعض الناس منها خير برهان على أثر مساعدة الفرد للحكومة فى تنفيذ قوانينها ، وفى معاوئتها على إصلاح أحوال الجماعة ، وضبط أمورها ونشر سلطانها وحيثتها واحترام أوامرها ونواهيها .

وقد سنت الحكومة عندنا تشريعا إثر تشريع وفرضت بعض العقوبات مثلا لمن يبيعون بئس أعلى من التسعير الجبرى ، ولمن يخزنون السلع ويحبسونها عن التداول حتى تشتد الحاجة بها ويطلبها الناس بأى ثمن مهما علا عن ثمنه الذى قرره الحكومة . ويود أولو الأمر أن يضبطوا تموين البلاد ويعطوا الناس من المواد الضرورية لغذائهم وكسوتهم ما هم فى حاجة ملحة اليه ، ويضعون العقوبات والقوانين لمن يخالفون أوامرها فى هذا الشأن .

ولكن هذه القوانين والعقوبات لا تصل الى كل مخالف ، ولا تظفر بالاحترام التام إلا خوفا ورهبة ، وكثيرا ما تكسر قيود هذه القوانين سرا أو جهرا . ويخو الخالفون لما من عقابها ، لأن الأدلة على جرائمهم غير قائمة ، أو لأن مخالفتهم لا شهيد عليها ، أو لأن التجايل على الفرار من عقابها قوى .

وعندنا كثير من قضايا القتل يحفظ لعدم توافر الأدلة ، وكثير من حوادث السرقات لا يعرف فيه السارق ، وإن كان يعرفه كثير من أهله وأصدقائه ، والتموص الأعراض يمشون فى الأرض مرحا لا ينالهم جزاء لعدم توافر أركان الجريمة . وبعض التجار والمتجيين يفرون من أصناف التسعير الجبرى بتغيير علامات بضائعهم ومصنوعاتهم تقييرا غير جوهري ليخرجوا من سلطة القانون وإن لم تخرج بضائعهم عن نوع الأصناف التي قررت الحكومة تسعيرها .

والمستهلكون يمتثلون على الحكومة لينالوا أكثر من حظهم، من ذلك ما تزيده بعض الأسرات في عدد أفرادها بزيادة الخدم أو بإحياء الأموات أو غير ذلك، حتى تصل إلى ضعف عددها وتنال من مواد التكوين أضعاف ما تستحق، فستتمتع به وتعمر منه من لهم حق فيه

والقائمون بالأمر في بعض الدول لا يتخلو أمرهم من محاباة هذا أو ذاك لقرابة أو صداقة أو سماحة وجه أو علو منصب وأكثر مما قرره الحكومة لذوى المناصب وسماح الوجوه .

ولقد كانت هذه الحرب ابتلاء لأخلاق كثير من الأمم والأفراد فأظهرت من الطمع والجشع والرغبة في أكل أموال الناس بالباطل ما صيحت منه البلاد، فضاقت به القوانين والمحاكم .

وأورجع الناس إلى أنفسهم في هذه الظروف، وكان لهم من ضمائرهم وأخلاقهم وازرع لأعطوا كل ذي حق حقه . واستراح كثير من الذين شقوا بمخالفات القوانين وجشع التجار وعبث المتعمرين في الأقوات وغير الأقوات من ضروريات الحياة . ولو حرص الناس على أداء واجباتهم فنصحوا لكل مخالف للقوانين، وأبلغوا الحكومة أمره إذا أبى الإصغاء لنصيحهم، وتعاون الناس جميعا على أن يقولوا الحق ويفضوا للاعتداء على القوانين والحرمات لسعدوا وعاشوا آمنين . ولو عرف الفرد واجبه في مساعدة الحكومة فامتنع عن الشراء بأعلى من أسعار الحكومة، وكف عن محاباة هذا على حساب ذلك، ونفر من استغلال الناس في وقت محنتهم وشدتهم كاستغلال محترني الأدوية ومواد التكوين، سلم كثير من آذاهم المرض وأضاحم الجوع، وعضهم البرد، وهتك أستاذهم العرى، ولرضى الفقير بعيشته، وأمن الغني من سخطه وأمانته .

حراسة الأخلاق، والجرأة في الحق، والصراحة عند الحاجة إليها، واجبات على كل فرد. والاعتماد على القانون وحده وعلى الحكومة وحدها في التيام على رعاية الأخلاق، وحفظ الحتموق ورعاية المصالح العامة والخاصة خطأ كبير . وليس من الأخلاق في شيء أن نرى السارق والمزور والمرتشى والمجرم يرتكبون أوزارهم ولا يفكر في أمرهم ولا تنضب من إجرامهم فإن السكوت على الاجرام والرضا به إجرام، ولو علم الناس أن شر المجرم لا يقتصر على واحد وأن السكوت على جريمته يزيد طغيانا لحذروه عاقبة أفعاله، وشهدوا عليه إذا قدم لمحاكمته، وأبلغوا الحكومة أمره إذا حاول الفرار من القوانين والعقاب .

أذكر حديثا بين مصرى وسيدة أجنبية يبدو منه كيف يفهم الفرد والجماعة المسؤولية الخلقية في بلاد الانجاز: قال الشاب للسيدة في أثناء حديث طويل بينهما: إن المشاية عندكم سائمة تبيت في مراعيها ولا حارس يحرسها أو لا تخافون للصمص عليها .

— أى للصمص؟ وكيف تخافهم؟ وأين يذهبون بها؟

— للصمص المشاية الذين يجدون الفرصة مواتية للسرقة عند وجود هذه الأبقار ليلا في مراعيها فيسرقون منها ما يشاءون ويبيعونه حيا أو مذبوحا، أو يخفون حتى يدفع صاحبه حيا أو ميتا .

— من ذا الذى تحمده نفسه بهذا؟ وكيف يدفع صاحب المسروقات حلوانها؟ وعلى يدمن يكون دذا؟ إن اللص الذى يسرق ثم يذهب إلى صاحب المال يطالب منه حلوانا لص مجنون لأنه يعرض نفسه للقبض عليه .

— اللص لا يذهب بل يرسل بدلا منه "واسطة خير" يسمى بين السارق ومن سرقت أبقاره مثلا . ولا ينسى أتباعه . وتعود الماشية الى مالكتها .

— ومن الذى تحمده نفسه ويخط ضميره الى حد التوسط فى مثل هذا الأمر؟ ولم لا يبلغ صاحب الماشية المسروقة، ويشهد أمام القضاء ذلك الذى تسميه "واسطة خير". قد ينكر دذا "الواسطة" وتضيع المسروقات فلا ترد بجلوان ولا بغير حلوان .

— وأين تذهب الماشية المسروقة إذن ياسيدى ؟

— تخفى فى بلد غير البلد الذى سرقت منه ثم تباع بعد أيام أو تذبح ويباع لحمها .

— دذا لا يمكن أيها السيد الطيب القلب . فان صاحب المسروقات يبلغ البوليس وتشر الجرائد المحلية والعامه أمر هذه السرقة ويصل البوليس مريعا الى السارق فينال جزاءه . والى المسروق فيعود الى صاحبه .

— وكيف يصل البوليس الى ذلك ؟

— ألا تعرف إن الناس يقرعون الجرائد ، وأن أهل كل قرية يملكون بها فى قريتهم ،

وأن الجار على الأقل يعرف ما عند جاره من ماشية ، فإذا زادت يوما ، ورأى الجار ذلك الخبز فى الجرائد وشك فى أمر جاره أخبر البوليس ليتحرى مر هذه الزيادة ؟

— وما شأن الجار؟ وكيف ينسى حقوق الجوار ؟

— حق الأمن أولى من حق الجار . والناس عندنا أعوان الشرطة فى منع الجرائم قبل وقوعها ، والمساعدة على ضبط المجرمين والذى تحمده نفسه بمنى السرقة التى جرتنا الى هذا الحديث مجنون ، لأنه سيعرض نفسه لفضيحة وعقاب لا مفر منهما ، ما دام للناس عيون ساهرة على الأخلاق . حريصة على مساعدة الحكومة فى كل شئ . وما دامت طباعهم تأبى أن يعيش فيهم مثل هذا اللص وتأبى أن يسكتوا عن جرائمه . كيف تتحدث بهذا يا فلان؟

— معذرة أيتها السيدة ، فهذا كثير فى غير بلادكم . ولعلك تعلمين بما يقوم به اللصوص فى أمريكا وتتحدث إليكم به الجرائد ودور السينما ويسكت الناس فى كثير من الحالات خوفا من اللصوص أو خوفا عليه .

— أما نحن فلا عيش لمثل هذا اللص بيننا ، ولهذا نحرص على الأمن واستقراره ومساعدة التوازن ورجال الحكومة على تنفيذها لتعيش فى هدوء واطمئنان .

— هذه خلاصة المحادثة بينهما ، وتلك درجة فهم الناس لواجبهم فى مساعدة أولى الأمر منهم على نشر الامن والأخذ على أيدي العابثين . ولعل لنا فيها موعظة وذكرة .

عبد الرزاق حميدة

مدرس بدار العلوم